

اهتمامات الغزّال من خلال رحلته

بقلم : أحمد الشتيوي

إنَّ « نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد » (1) هو العنوان الذي اختاره الغزّال (2) لوصف رحلته السفارية (3) . ورغم ان العنوان يوحي بأنَّ الكاتب سيتكلم عن الغاية من سفارته وهي مفاوضة الملك الإسباني في « فكّ الأسرى » (4) ، فإننا لا نجد معلومات ضافية عنهم مثل أسمائهم وصفاتهم ودرجاتهم العلمية والاجتماعية وجنسهم وأسباب أسرهم (5) وأنواع أعمالهم ، ومدى حفاظهم على العقيدة الإسلامية إلى غير ذلك من جوانب حياتهم في الأسر .

ونذهب إلى أنَّ الغزّال قد قصد هذه الغاية ، فابتعد عن أخبار تبدو - في نظره - سياسية وجافة ولا تهم القارئ ولا تضمن لكتابه الشهرة وعوض

1 - حققها وقَدَّم لها إسماعيل العربي ، نشر دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1980 (30 ص + 212 ص) ونلاحظ أنَّ هذه الطبعة (الثانية) رديئة جدًا .

2 - هو أحمد بن المهدي الغزّال استعمله محمد بن عبد الله في الكتابة والسفارة فأوفده الى اسبانيا ثم الجزائر توفي سنة 1191 / 1777 ، انظر مقدّمة تحقيق رحلته وأيضاً محمد الأخضر : الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية - الدار البيضاء . ط 1/1977 ص ص : 312 - 316 .

3 - هذا نوع من أنواع الرحلة التي اشتهر بها المغاربة . انظر تصنيفها عند محمد الفاسي في المقدمة الهامة التي وضعها لتحقيق رحلة سفارية أخرى قام بها ابن عثمان سنة 1193 / 1779 عنوانها : الإكسير في فكّك الأسير ، الرّباط 1965 .

4 - حظي الموضوع بعناية المغاربة ، ولكن أوروبّا كانت أكثر عناية انظر عن ذلك : - Guy Turbet Delof : L'Afrique barbaresque dans la littérature française aux XVI^e et XVII^e siècles ; Librairie Droz; Paris - Genève; 1973; la bibliographie.

5 - أسباب الأسر متنوعة منها القرصنة ، وتكسر السفن ، ومهاجمة المدن .

الحديث عن سفارته بتسجيل « ما يشاهده بنانه وأقلامه ، ويستوعب من خبر (6) البلاد الإصنيولية بعضه وجلّه ، ويقتصر على ما يشاهده في الإقامة والرحلة » وبأنّه لن « يتعرّض لما هو من طريق المؤرّخين من حشو مؤلفاتهم بتكرار أخبار المتقدّمين ، يعتمدون في ذلك على النقل ، ويأتون بما هو مستحيل وما لا يجوّزه العقل . . . » (7) . فجاءت رحلته معرضا لاهتماماته ومشاغله لأنّه لم يدوّن إلّا ما عاين ، ولم يسجّل إلّا ما أحسّ ولم ينقل إلّا ما هو طريف . وهذا ما حدا بنا الى ابراز بعض فوائد هذه الرحلة .

وضعية الأسرى :

كان الصّراع البحري عنيّفا بين المغرب الأقصى وإسبانيا . وكان السلطان المغربي محمّد بن عبد الله (8) مغرما بالبحر والقرصنة التي صارت في عهده حركة جهادية . فبنى المراسي (9) وعمّر الثغور ورّم المهدود منها وحصّنها بالمدافع وأرسل سفنه في البحر « تقرصن » وقراصينه « تجاهد » (10) وقد نشر الرّعب في قلوب ملوك أوربّا المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط حتّى سعت الى

6 - في المطبوع : خير - ونظرا الى ان هذه الطبعة رديئة فإننا عدنا الى ثلاث نسخ مخطوطة في المكتبة الوطنية بتونس هي : رقم 18874 ورقم 9271 ورقم 9908 ، فضلا عن المخطوطتين اللتين ذكرهما المحقق وهما رقم 16123 ورقم 18619 .

7 - نتيجة ص - 45 .

8 - من العلويين حكم بين 1171 / 1757 و 1204 / 1790 ، وفي عهده ازدهرت المغرب . انظر عنه : R. L. Diaz :

El Sultanato de Sidi Muhammad b. ' Abd Allah (1757 - 1790) ; dans Cuadernos de - Historia del Islam n° 2 ; 1970 (Extrait de sa thèse d'état)

Nuevas publicaciones sobre el sultanato de Sidi Muhammad b. ' Abd Allah (1757 - - 1790) dans : Cuadernos N°8 ; 1977 ; pp . 45 - 56 .

9 - مثل مرسى الصّويرة ، وهو مرسى عجيب ذو شهرة عند القاصي والداني حتّى أنّ سفيرا إسبانيا تمّنى أن يعود الى بلاده منه انظر نتيجة ص 38 ، 231 .

10 - نتيجة ص 37 .

عقد اتفاقيّات معه (11) وأشهر من طلب ودّه وهادنه كارلوس الثالث ملك إسبانيا (12) . كانا يتبادلان السّفارات . ورحلة أحمد بن المهدي الغزّال هي إحدى تلك السّفارات (13) وسببها يعود إلى التّفاوض في شأن الأسارى المسلمين بإسبانيا . كان على السّفير أن يتّفق مع الحكومة الإسبانية في البنود التالية :

- تسجيل أسمائهم وألقابهم .

- تسريح الأسرى المغاربة جميعا (14)

وأما أسارى الإيالات الأخرى فلهم الفوائد التّالية :

- تسريح الطّاعنين منهم والبصراء (15) والمبطولين (16) ومن في معناهم .

- فكّك رجلين من الجزائر (17) .

- أن يتولّوا دفن من يموت منهم بأنفسهم ومتركه لهم .

- أن يتولّى أمرهم نصراني لا متنصّر .

- أن يكتبوا رسائلهم باللغة العربية .

- أن يرفق بهم في الخدمة .

11 - انظر J. Caillé : Les accords internationaux du sultan Sidi Muhammed b . Abdallah (1737 - 1790); Tanger 1960 .

12 - عاش بين 1706 و 1788 وتولّى الحكم في إسبانيا من 1759 إلى وفاته خاض عدة حروب وغزا المغرب (1774) والجزائر (1775 ، 1783 ، 1784) - انظر عنه Grand Larousse 2 / 885 .

13 - أقدم الرحلات من هذا النوع هي رحلة الوزير الغساني (ت 1119 / 1707) ، وأيضا رحلة ابن عثمان .

14 - كان عددهم 83 أسيرا . انظر نتيجة ص 183 - 184 .

15 - مفردة : بصير وهو استعمال عامّي يطلق على الأعمى .

16 - مفردة مبطول وهو المشوّه والمقعد انظر 1 / 96 Dozy : Supplément .

17 - أحدهما طالب علم والآخر متسيّد بمروءة ، تقدّمت منها مكاتبة السلطان .

- أن يعالجوا في المستشفى مثل غيرهم .
- أن يحصلوا على الكسوة والمأكل اللّازمين .
- ألاّ يلزموا بالعمل وقت الصلاة .
- تمييز طلبة العلم وتوقييرهم واحترامهم (18) .

وبالإضافة الى هذه الاتفاقية التي تمّ عقدها في أحسن الظروف (19) اتّصل الغزّال بالأسارى ليمدّهم بالصّلة المالية السنوية التي كان يرسلها لهم السلطان المغربي (20) وليقوّي عزيمتهم ويعظّمهم ويحرّضهم على الشّدّ على دينهم بالنّواجذ (21) وكان الغزّال يتألّم لما يشاهد عليه إخوانه من غربة واثقال بالسّلاسل والأكبال وأعمال شاقة مثل شق الطرقات وحفر الأنفاق بتفجير المفرّقات (22) وكان يعدّهم بالسّراح السّريع عندما يستطيع السّلطان (23) . ويحاول جهده التخفيف عنهم ، وسعى « في الإيضاء عليهم للمتولي أمرهم من قبل الطّاغية (24) » قد تمكّن - بفضل حنكته - من فكّ أسر عدد كبير من غير المغاربة (25) .

-
- 18 - كذا فعل سلطان المغرب محمد بن عبد الله مع رجال الدين (الفرايالية) الإسباني . انظر السلاوي : الاستقصان في اخبار المغرب الأقصى - المطبعة البهية - مصر 1312 / 1894 ، ج 4 / 100 .
- 19 - نتيجة ص ص 141 - 142 .
- 20 - نتيجة ص ص 152 ، 185 .
- 21 - كان التنصير بالنّسبة إلى الأسارى المسلمين والإسلام بالنّسبة إلى الأسارى النّصارى أخطر ما يتعرّض له الأسير .
- 22 - نتيجة ص 124 .
- 23 - نتيجة ص ص 143 ، 154 ، ونلاحظ ان السلطان قد وفي بوعده ، فنوسط بين إسبانيا والجزائر (أكبر عدد من أسارى المسلمين في إسبانيا منها) لتبادل الأسرى بينها كما افتدى هو ألفي (2000) أسير جزائري على دفعات . انظر ابن عثمان : الإكسير ص 15 .
- 24 - هذا تعبير مغربي يطلق على الملك (عند الافرنج) ، ووجدنا أنّ أوّل من أطلقه على الملك الإسباني هو طارق ابن زيادة في خطبته الشهيرة في فتح الأندلس . انظر المقرئ : نفح الطيب ، ط - صادر ، ج 1 ص 240 .
- 25 - ذكر الغزّال أن جملة عدد الأسرى الذين فكّ أسرهم 290 (ص 219) وبما أنه ذكر أيضا أن عدد المغاربة 83 أسيرا يكون عدد الجزائريين 207 .

بعض مظاهر الحضارة الإسبانية :

كانت إسبانيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي ، أي سنة دخلها الغزّال 1180 / 1766 (26) دولة عظيمة، قوية بفضل تدفق الأموال عليها من مستعمراتها بالأرض الجديدة أمريكا وبفضل مزايا التجارة بالإضافة الى ما تغنمه من غزواتها وقرصنتها . فقطعت من التقدّم والإزدهار أشواطاً . وكل ما شاهده الغزّال فيها ووصفه منها يوحي بذلك .

إنّ أوّل ما شغل الرّحالة المغربي هو المدينة فهي روح الحضارة وجسمانها فاهتمّ بموقعها وحصانتها بالأسوار والمدافع . وهذا يفسّر مشاغل الرّحالة السياسية والعسكرية ، فحصانة المدينة تبينّ له مدى قوة الإسبان . كما انشغل باتساع مسالكها ، وترتيب أرصفتها وترصيف طرقها بالحجارة ، وعلو مبانيها وارتفاعها إلى أكثر من « خمس طبقات » (27) وتغطيتها بالقراميد ، وشرابيتها العديدة . ووصف أيضاً انفساح أجنتها وخضرة حدائقها ونضارة أشجارها وبناعة أزهارها (28) إلّا أنّ السّفير أعجب حقّاً بالأكداش (29) المتسارعة وهو مشاهد لم يره ولا ألفه في بلاده . وما ذلك إلا دليل على أنّ المدينة الإسبانية حيّة وأهلها مرفّهون ينشطون في حركتهم وتنقلاهم ويريحون أجسامهم من أتعاب التّرجل ، وهذا الإعجاب لم يُفقد صفاء رؤيته ولا سوء تقديره ذاك أنه إنّما كان ينظر ويُبصر ويتأمّل ويرتّب كل مدينة في درجتها

26 - كان الوفد المغربي في سبتة في منتصف ذي الحجة عام 1179 / الأحد 25 ماي 1766 ، وكان مقبياً في مدريد في 10 ربيع الأوّل عام 1180 / السبت 16 أوت 1766 .

27 - نتيجة ص 123 .

28 - نتيجة ص ص 122 - 123 .

29 - مفردّه كَدَشْ ، وهو تعريب - مع تحريف - للفظ : كوتشي الإسباني Coche العربة التي تجرّها الخيل أو البغال .

الحضارية المناسبة ، وهي رتبة نابعة من معاييرها الحاصلة من ثقافته العربية الإسلامية :

- فمدينة حضرية وأهلها أهل رفاة وحسن خلق وأخلاق (30) .
ومدينة بين الحضارة والبدواة : أهلها أصحاب رقة وأدب وبنائها غير شاهق (31) .
ومدينة بدوية وأهلها أهل فُلح (32) .

وإذا كان للمدينة مظهر عام يُحدث الانطباع الأول فباطنها هو قلبها النابض ، وهذا الباطن هو المؤسسات المتنوعة التي تتحرك بحركتها المدينة . ولم يهمل الغزال هذا الجانب ، وحاول - رغم قصر المدة التي كان يقضيها في المدن التي يعبرها - أن يقدم معلومات ضافية عنه . فتحدث عن واحد من المستشفيات الإثني عشر في مدريد (33) . وهو مستشفى متكامل فيه أماكن الفحص والكشف عن العلل « وبيوت الأدوية » (34) المحتوية على « معاجن وأشربة وأدهان وعقاقير وأعشاب » وبها « الحكماء يستعملون الأدوية الوقتية ، والمباشر لهشم العقاقير صبيان صغار بالمهراس ، ومنهم من يزيل من الأعشاب ما لا فائدة فيه ، وهناك قطاير قدر القامة من النحاس يقطر فيها ماء الأعشاب

30 - انظر مثلاً ص : 104 ، 105 ، 109 ، 110 ، 175 ، 176 ، 192 ، 193 ، 194 ، 212 ، 214 .

31 - انظر مثلاً ص : 71 ، 171 ، 173 ، 174 ، 193 .

32 - انظر مثلاً ص : 24 ، 93 ، 106 ، 107 ، 108 ، 109 ، 144 ، 170 ، 171 ، 172 ، 173 ، 174 ، 177 ، 191 ، 193 ، 194 ، 212 ، 213 .

33 - نتيجة ص 155 - وص 53 - 54 وفيها وصف مستشفى خاص بالأمراض الصدرية .

34 - يقصد الصيدلية - انظر وصفها ص 154 .

المحتاج إليها» (35) والمطبخ الكافي لإطعام «ما يزيد على مائة رجل» مقيم (36).

وأكثر ما اهتم به السفير المغربي - في المدينة الإسبانية - النشاط الصناعي والحقيقة أنه استغلّ عناية الملك الإسباني الذي سمح له بزيارة المؤسسات الصناعية المدنية وحتى العسكرية.

زار الغزال «دار الشنة» (37) وهي خاصة بصنع الأواني الفخارية، وقد لاحظ أنه «لا فرق بين صانع الأواني [بالمغرب] وصانعها هنالك في العمل» إلا أنه أعجب أليما إعجاب بألوان الأشجار والأزهار «في خضرة الأوراق، وبياض النوار، أو الحمرة، كل على خلقته، وجميعه من الطين. وهذا مما لا يجوزه العقل، ويحار فيه ذهن مشاهده عيانا». وحاول السفير أن يعرف «سر الصنعة» منهم وأن يكشف عن هذا السر العجيب في التلوين قال «وقد أوهمتهم بجعجعة ألقّت في نفوسهم بأنّي صاحب حكمة وأنّ سؤالي لهم تنكيت. فإن أجابوا حصلت على المراد، وإن امتنعوا، فما تسبّبوا إلا في عدم حصولهم على ما عندي من الحكمة التي هي أغرب وأعجب مما عندهم» ولكنّ حيلته كانت أضعف من حجّتهم «حيث حجّر عليهم طاغيتهم الإعلام بذلك» (38).

وفي مدينة لاكرانخه زار الرحالة المغربي مصنع بلّور يتكوّن من دارين «دار يصنع فيها الرّخام مرايات (39) وألواح (كذا) من البلّور التي تُجعل

35 - نتيجة ص ص 154 - 155.

36 - نتيجة ص 155.

37 - كذا في المطبوع ومخطوطي (رقم 18619 و 9908) والشينة في (رقم 9271) و (18874) والشينة في (رقم 16123). ولعل ما أثبتناه هو الصحيح.

38 - انظر وصف هذا المصنع ص ص : 120 - 121.

39 - لفظة عامية تعني المرأة.

بالأكداش ، والشراحيب وما أشبه ذلك » ، و « دار أخرى لعمل البلّور أكوازا (40) ومصابيح وغراريف وثرّيات وغير ذلك » وقد أعجب الغزّال في هذا المصنع حصول العمل « بحركات » تسهّله ، وتنجزه بسرعة وبأقل كلفة ، وبكبير اتقان (41) .

وقد استغل فرصة وجوده في غرناطة فدخل إلى « ديار يُعمل فيها الكاغد » تقع على وادي شنيل (42) لأن نواعيرها « تدور بحركات الماء » . فالطاقة المائية هي العاملة على رزم « قِطْع من خِرَق الكتّان البالي » وتفتيتها وتلاشيها ، ثم يُلقَى عليها « شيء من الجير » وهي في الماء وبعد نصف شهر تُصبّ في قوالب ، وبعد أعمال مختلفة يُستخرج منها ورق صقيل (42) .

وزار الغزّال مصنعين عسكريين . الأوّل بإشبيلية وهو لصنع « المدافع والقراريط (43) » العمل فيه شبه آلي في جميع مراحل الإنتاج : القوالب وتذويب النحاس ، وتبريم (44) كتلة النحاس بعد صبّها في أحد القوالب حتّى تخرج مدفعاً متوسط الحجم أو كبيره ، وخرطها وأخيراً حَمَل ما يجب حمله على القراريط . ومصنع هذه العربات ملاصق لمصنع المدافع (45) . والثاني بمدينة قرطخنة وهو خاصّ بصنع « السفن الهائلة » يتكوّن من صهاريج تُفرغ

40 - في المطبوع كزوسا وهو تحريف والصحيح ما أثبتنا .

40 - انظر وصف هذا المصنع ص ص 134 - 137 .

42 - هو نهر Genil . وهناك نهر آخر يشقّ غرناطة هو دارو . Daro .

42 - انظر وصف هذا المصنع ص ص 196 - 198 .

43 - جمع عربي للفظة Carreta الإسبانية . والشائع في تونس لفظ كَرِيطة : وهي عربة ذات عجلتين لحمل الأحجار والمدافع وغيرها .

44 - من فعل بَرَم بمعنى لوى ، ويستعملها الغزّال استعمالاً اصطلاحياً ويقصد بها عملية نقر كتلة النحاس لتصير مجوّفة تجويفاً مستديراً . ويعبّر عن هذا المصطلح بالفرنسية Fraise - والآلة Fraiseuse .

45 - انظر وصفه ص ص 86 - 88 .

من ماء البحر بالإطْرُنْبَات (46) وتُبْنَى فيها السَّفِينَة الواحدة . فإذا تَمَّت « تَفْتَح طاقات (47) من صدر الدَّفَتَيْن بحركات هندسية فيدخل منها الماء للصهريج » فتعوم السَّفِينَة وتخرج إلى البحر . وبنفس الطريقة يقع إصلاح السَّفِن المنصدعة . ويلاحظ الغزال أنَّ هذا المصنع يحتوي على كلِّ اللّوازم من مكاحل (48) وكوابس (49) وسيوف وبراميل (50) بها مسامير مختلفة الطّول ومدافع وبارود « بحيث إذا صُنِعَ مركب يجد صَانعه إقامته (51) حاضرة ولا يتوقّف على مسألة خارجة عن المحلّ الذي صُنِعَتْ فيه السَّفِينَة قَلَّتْ أو جَلَّتْ » (52) .

هذه الملاحظة الأخيرة ذات قيمة حضارية لأنها تكشف عن خاصية من خاصيّات الصّناعة العصرية الّتي لم يعرفها في ذلك الوقت العالم العربي . هذه الخاصية تعني اليوم ببساطة ما يسمّى بالتكامل الصّناعي أي أن تتوفر جميع القطع والآلات التي يُحتاج إليها في صنع السَّفِينَة . وهناك خاصية أخرى اكتفينا بالإشارة إليها نوّد التركيز عليها لأهميتها في ابراز ما تمتاز به الصّناعة الإسبانيّة من تقدّم عظيم . هذه الخاصية هي « الحركة الآلية » الّتي تسيّر المصانع . إنَّ الغزال انتبه الى هذه الصّفة ووعاها حقّ الوعي . وها هو - في هذا المثال - يحاول وصفها - على قصور اللغة العربيّة في ذلك - بما يدلّ على عارضة في تطويع اللغة . قال واصفا عملية تبريم المدافع :

46 - مفردة : إَطْرُنْبَة Tromba الإسبانيّة وهي آلة لاستفراغ الماء من الصّهاريج أو غيرها .

47 - مفردة طاقة ويعني بها منفذ الماء .

48 - مفردة مُكْحَلَة : هي في الأصل آلة تُستعمل لقذف الحجارة ثمّ لقذف المواد المحرقة لم لقذف الرصاص المواد المتفجرة ، وهي تعني أيضا البندقية انظر 8 - 447 / 2 : Dozy .

49 - مفردة كا بُوس وتقال أيضا قَابُوس : آلة قتل هي المسدّس انظر 2 / 299 : Dozy .

50 - مفردة بَرْمِيل من الإسبانيّة Barril وهو وعاء من قصدير .

51 - يقصد ما يحتاج إليه الصانع من قطع وآلات لصنع السَّفِينَة .

52 - انظر وصف هذا المصنع ص ص 189 - 190 .

« وكيفية تبرئها ، منها ما يُبرم مثل المُكحلة مبسوطاً : وهو المدفع المتوسط ؛ ومنها ما يُبرم قائماً : وهو المدفع الكبير ، يُربط بين السّواري بقمّات (53) في الهواء ، وفمه مقابل الأرض ، والبريم ممكّنة في جوفه تدور بثلاث نواحر : إثنان مبسوطتان ، والثالثة قائمة ، فالمبسطة الموالية للأرض تُحرّك القائمة والقائمة تحرّك المبسطة التي فوق ، وفي وسطها البريم الممكنة في جوف المدفع . واستقلت حركة هذه النواحر الثلاث بحركة بهيمية واحدة . وللمدفع المعلق حركات في النزول شيئاً فشيئاً حتى يستوعب البريم منه القدر المحتاج إليه » (54) وقد أدرك الغزّال أنّ المستفيد من هذه « الحركة البهيمية » هو الصّانع فصارت « الحركة » دليلاً على راحة العمل وسرعة الإنجاز وجودة الإتقان . ونكتفي بهذه الجملة للتّدليل . فعندما تُنقل المدافع للخرط وهي آخر عملية في صنعها يكون « المحرّك [لها] حال الخرط ناعورة تدور بحركات لا تعب على محرّكها . . . » (55) .

هذا التّقدّم الذي حقّقته إسبانيا في ميدان الصّناعة لا يعود في نظرنا إلى عوامل إقتصادية فقط بل إنّه ناتج أيضاً عن عامل آخر ذي فعالية قويّة في تغيير عقلية النّاس ودفعهم للعمل ألا وهو التعليم . ولا نقصد به ذاك النوع التلقيني المألوف في البلاد العربية بل نعني التعليم التّقني . وإن قصر الغزّال حديثه عن التعليم البحري (56) فإنّنا نتوقع وجود أنواع أخرى منه . والمهمّ أن وصفه للمدرستين البحريتين اللّتين زارهما يوضّح مستوى هذا النوع من التعليم .

53 - لم نستطع التّعرف على هذه اللفظة ولعلّه يعني : السّلاسل .

54 - ص 87 .

55 - نفس الصفحة .

56 - لا ننسى أهميّة التعليم البحري في ذلك العصر لاشتداد الصراع بين الدّول الأوربيّة الواقعة على البحر نذكر مثلاً على ذلك : إسبانيا - البرتغال - وبريطانيا العظمى . . .

أما المدرسة الأولى فتقع بإشيلية بجانب مصنع المدافع المتحدّث عنه أنفاً ، وهي مختصة بتكوين البحارة ، يقيم فيها مائة وخمسون صبياً ، يعوّضون بحسب المتخرجين منهم . ولا يغادرون المدرسة ، ويقضون وقتهم في تحصيل العلم « على اليقين علماً ومباشرة » أو كما نقول اليوم : نظراً وتطبيقاً . فإذا تعلّم الصبي الحروف ومبادئ العلوم والقراءة والكتابة انتقل إلى مرحلة العلم اليقيني . ففي المدرسة « سفينة قدر الفلوكة مشتملة على جميع ما تحتاج إليه السفن إجمالاً وتفصيلاً ، بحيث يقرأ الصبي الكتب المشتملة على علوم البحر ، وما يتعلّق بألة المركب ، وكلّ مسألة ترسخ في ذهنه عن طريق القراءة تؤيّد بها مباشرته للمركب الحاضر معه » ، وبحسب نجاحهم في استيعاب العلوم وتفوقهم في الدّراسة يكون « منهم عدّة يكانجية (57) ثمّ الأسطاريّاس (58) ثمّ الرّياس فمن دونهم ممّن يتوقّف عليه المركب في حركاته » . ويتكوّن الإطار التّعليمي في هذه المدرسة من ثلاثة شيوخ طاعنين في السنّ هم الأساتذة يساعدهم عدد من المعلّمين (59) .

أما المدرسة الثانية فتوجد في شقوبية . ورغم أنّ هذه المدينة هي أبعد ما يكون عن البحر فإنّ مدرستها خاصّة بما « يتعلّق بأمر البحر » ولا ينتسب إليها إلّا « أبناء الأكابر » ويسيّمون فيها أيضاً . وتعجّب الغزال من مبيتهم فقال فيه « وقد وقفتُ على موضع مبيتهم (60) بمقاعد (61) عديدة هي فوق المقاعد

57 - في المطبوع « دمانسيجية » والصحيح ما أثبتنا اعتماداً على قول السّلاوي في الاستقصا 4 / 107 ، واليكانجي رتبة بحرية عسكرية عالية .

58 - في المطبوع : الاسطيرياس ، والصحيح ما أثبتنا . والأسطاريّاس مفردة أسطاريّاس وهي رتبة تحت اليكانجي وأعلى من الرّياس .

59 - انظر الحديث عن هذه المدرسة ص ص 88 - 89 .

60 - ذكر في مناسبة أخرى : موضع نومهم - ص 88 .

61 - مفردة مقعد وهو يعني : القاعة .

التي يقرؤون بها ، كل واحد بفراشه على سرير ، وتحت السّرير ربيعة (62) وبإزائه شلية (63) . ومن العجب أن عدد الفُرش شيء كثير . وفيما بين كل واحد والذي يليه ، قدر ما يمرّ به الإنسان وهناك ولدان صغار جدًا وقد مازحتُ عدّة منهم بسؤال واحد : أين فراشه ؟ فيهتدي إليه من غير توانٍ ولا تأملٍ ، ولا يرتاب أحد منهم في محله ، مع أنهم على هيئة واحدة . . . » (64) .

هذا هو نوع التعليم الذي تقدّمت به إسبانيا في ميدان الملاحة وغيرها من الميادين الصّناعية والاقتصادية . . .

مظاهر الأرستقراطية والفن :

صحب التقدّم الاقتصادي والعلمي الذي حقّقه إسبانيا تطوّر اجتماعي برزت مظاهره في سلوك الطبقة الأرستقراطية في الدّرجة الأولى . فقد لاحظ الغزّال أنّ هذه الطبقة تجسّم الثراء والبذخ وتختصّ بأنواع من السلوك وتحافظ على عادات متنوّعة منها الرّقص والغناء ، ورمي المحاريق ، ومصارعة الثيران والمسرح .

لقد كان استقبال الاسبان للوفد المغربي عظيمًا فحين يطلّ الراكب على إحدى المدن يهرع أعيانها يرحّبون ويسلمون ويخفّفون على الغزّال ومن معه أتعب السّفر فيُنزلونهم في أحسن منزل ويحيطونهم بأحسن رعاية . وكثيرا ما كانوا يقيمون لهم الأفراح فيصنعون حفلات رقص يحضرها القاضي والحاكم

62 - وتسمّى أيضا الرّبعة وهي صندوق لوضع الأثاث .

63 - جمع عربي للفظّة الإسبانية : Silla . ونلاحظ أن السّين (S) تُقلّب شينا في النطق عند المغاربة ، والشلية هي الكرسي ، أو الكرسي الوثير .

64 - انظر الحديث عن هذه المدرسة ص ص 144 - 145 .

ومن لفّ لفّهما . ولا يأنف الغَزَّال من حضورها بل كان يُظهر اللّين والبشاشة . وبسبب هذا التّسامح أتحف القراء - في عصره - بمشاهد الرّقص التي وصفها رغم اختلاط المرأة فيها بالرجل ، قال في احدها « وكيفية رقصهنّ : كل ذكر مع اثني دائرتين في المحلّ ، والنّسوة يدخلن ويخرجن بين الرّجال في الدّائرة أحيانا ، ثمّ يرجعن في مقابلة الرّجال ، فيأخذ كلّ واحد منهما بيدي صاحبه ، ثم يفترقان ويتأخّر الرّجل عن المرأة القهقري ثم يقصدها أيضا وتقصده حتّى يجتمعا على الصّفة المذكورة . وهكذا يفعل كل ذكر مع كلّ أنثى معيّنة للرّقص معه » (65) وفي حفل آخر فوجيء الغَزَّال بصاحب الطاغية (66) يأخذ « بيد شابة من حسانهن - أي النساء - وجعل يرقص معها » فتعجّب « من فعله مع ما ظهر . . . من ثباته ودهائه وأنّه مبعوث من طاغيته لأصحاب سلطان الإسلام ، يجب عليه أن يفعل ما تطول به رقبة مرّسله إلى غيره . . . من الأمور الواجبة عليه مراعاتها قولا وفعلًا » وساء السّفير أن يفعل مستقبله أمامه هذا الفعل . ولم ينقض الحفل حتّى « كشف الغيب أنّ الرقص عندهم من كمال المروءة وأداء الواجب عليهم في إكرام الضيّوف من ذوي الأقدار » (67) .

وإذا كان الرّقص علامة على الحفاوة بالضيّيف والسّرور بمقدمه ولا يُخفي - على ما فيه من اختلاط بين المرأة والرّجل - أيّة رذيلة أو سوء أدب بل هو الأدب كلّّه فما أدراك بفنّ يشارك فيه الأب ابنه والأُم ابنتها والكبار الصّغار ! فإنّ الغناء والموسيقى لهما شأن أعظم . فهما عنوان الذوق الرّفيع والتبجيل

65 - ص ص 56 - 57 .

66 - بعث الملك الإسباني أحد قواد عسكريه وبعض الجنود يستقبلون الوفد المغربي ويصحبونه في سفره الى العاصمة - انظر ص 57 ، 61 .

67 - ص 63 .

والتكريم وهما سمة من سمات الأرستقراطية . وحين حضر الغَزَال حفلا فيه الغناء والموسيقى أدرك الحقيقة وعَلِمَ أن هذه الطبقة تعلّم هذين الفنّين لأبنائها منذ نعومة الأظفار . فهذه بنت تُنشد « بصوت يُذهل العقول » . وهذا أخوها أكثر غرابة في تصرّفه قال الغَزَال يصفه « ولها أخ ظننت أنه لا يحسن الكلام ولا يُلَفّق بين الحروف لصغره ، وعليه مخايل البله ، فلم أشعر إلّا وهو بين أهل الموسيقى ، وبيده رَبَاب وأنامله تدبّ على أوتاره ، فتعجّبت من ذلك وسألت في الحال أهل الموسيقى هل يُحسّن شيئا ، أو جلوسه معهم من غير فائدة ؟ فكان جوابهم أن تركوه وحده يضرب . وقد أجاد ! » وأدرك أن الموسيقى عندهم نزهة النفوس ومُتعة الأرواح وأنها « علم . . . هو شعار الأعيان . . . وذوي الأقدار » (68) . ولم يكتف الإسبان بالرقص والغناء وعزف الموسيقى ترحيبا بالوفد المغربي بل زادوا على ذلك « إطلاق المحارق (69) » ويبدو أن هذا النوع من الفُرجة لم يكن غريبا عند أحمد الغَزَال إلّا أن المُحرقة الواحدة - عندهم - تصعد في الجوّ بشكل غير معهود « ذاك أنها إذا توسّطت الجوّ تعدّدت في اخراجها عدّة محارق ، ثو تتبعها محارق أخرى ، فتتعدّد أصوات المحارق في الجوّ كل واحدة بعشرة » (70) .

وإنه لمن الغرابة بمكان لو أهمل الإسبان استقبال السّفير المغربي دون أن يعدّوا له فُرجة هي خاصّة بهم دون سواهم من الشّعوب ألا وهي : مصارعة الثيران (71) . ورغم ما يكلفه هذا النوع من الحفلات فإنهم أعدّوا واحدة

68 - ص ص 156 - 157 .

69 - هي ما يعرف اليوم بالشماريخ ، وهي نار صناعية ذات أصوات وإضاءات وأشكال مختلفة يطلقها الناس بمناسبة الأفراح ، ومنها البسيط والمركّب . انظر عنها : G. L : 1 / 615 (Feu d'artifice) .
ونلاحظ أن الغَزَال شاهدها عدّة مرّات انظر ص 94 ، 107 ، 109 .

70 - ص 94 .

71 - انظر وصفة حلبة مصارعة الثيران (Corrid de Toros) ص 63 - 65 .

دعوا لها السَّفير في مدينة « مدينة » (72) . ورغم أن « تعذيب الحيوان لا يجوز للإنسان . . . بالشرع ولا بالطبع » فإنَّ الغَزَّال لم يتأخَّر عن حضور هذه الفرجة « جبرا للخواطر » ولم يتوان في وصف ملعب المصارعة ومشاهد التَّزال المؤلَّة والمواقف الحرجة بين المصارعين والثور (73) .

ونعتقد أن مواضع الفرجة التي اهتم الغَزَّال بوصفها تظهر أقلَّ قيمة إذا قسناها بحديثه عن موضع فُرجة آخر هو « الكميدي » (74) . وهو حديث ذو أهمية تاريخية لأنَّه أوَّل حديث عن هذا الفنَّ الجديد الذي لم يعرفه العرب قبلُ : فنَّ المسرح (75) . والكميدي - عند الغَزَّال وكما شاهدها - تعني النَّصَّ كما تعني البناء . وقد وُضِّح ذلك بصفة جلية . ونظرا لأهمية هذا الوصف فإننا رأينا نقله بحذافيره فقد حضر السَّفير المغربي عرضاً كميديا في مدينة المنُور فتحدَّث عما شاهد بقوله « ومن أعجب ما رأيتُ - عندهم - بُنيَّة ما ظننْتُ في عمرها تسعة أعوام . وقد أحيَتْ اللَّيل كلَّه بالغناء بين أهل الموسيقى . ثم أخذت في الرِّقص على هيئة غير معهودة عندهم . ثم باشرتُ عود الطرب بيدها . ولما قضت منه الغرض أسكنتُ المُعلِّمين (76) ثم قامت

72 - هي Medina Sidonia

73 - انظر وصف المبارزة ص : 65 .

74 - رسم محقَّق الرحلة هذه الكلمة : الكوميديا (مرتِّين ص 174) ورُسمت في بعض المخطوطات : الكميدي (انظر رقم 16123 : ورقة 41 ط ، ورقم 18874 : ورقة 80 و) . واللفظة تعريب للإسبانية : Comedia وهي تعني المسرح الشعبي الذي نشأ في إيطاليا وانتشر في بقية البلدان الأوربية . انظر فصل : Comedia dell'arte : Encyclopedie Universalis 6 / 742 - 744 .

75 - الشائع أنَّ أوَّل من وصف المسرح من الكتاب العرب هو رفاعة رافع الطهطاوي . ففي كتابه : تخليص الإبريز في تلخيص باريس تحدَّث عنه وعدَّه من « الملاهي » وسماه بالمصطلح الفرنسي « يَتَاثْر » (Théâtre) كما سماه « سبكتاكل » (Spectacle) وذكر أنه يعني « اللَّعب وعمله » ونشير إلى أنَّه ذكر لفظة « كميدي » المشتهرة عند الأتراك . انظر تليخيص الإبريز ، ضمن الأعمال الكاملة - بيروت ط 1973 ج II ص ص 119 - 121 .

76 - يقصد الموسيقيين الذين يصحبون الفتاة .

على قدميها خاطبة في القوم ، والكَلَّ في غاية الإنصات لها . وجعلت تارة تُدْمَع عَيْنُهَا ، وتارة تُضْرِبُ بيدها على صدرها ، وتارة تنقبض ، وتارة تنبسط . وممَّا يُسْتَعْرَبُ منه - أيضا - أنَّها تسرد ما تُمْلِيه على القوم بسرعة ، ولم يصحبها توقُّف ولا تلجلج . واستمرت على تلك الحالة ما يقرب من ساعة . فكشف الغيب أنَّ ما كانت تُحدث به هو محفوظ من كتاب عندهم كالعنترية (77) وهم يسمونها بالكميدية .

والكميدية عبارة عن دار هي محلّ جمعهم للنزهة والفرجة : يجتمع فيها الوضع والرفيع من قُرب المغرب الى نصف الليل على التأييد . وللدار طبقات عديدة ومقاعد على صحن الدار .

ولا تجد امرأة ولا بنيةً بهذا المحلِّ إلا وبيدها كُرَّاسة من هذه الخرافة (78) التي هي على ظهر قلب هذه البنية المحدث عنها « (79) .

وإن أشار الغزّال الى البناء اثناء وصفه للنصّ المسرحي وكيف تؤدّيه الفتاة فإنه تحدّث في مناسبة أخرى عن مسرح الملك في مدريد ، وقدم عنه وصفا دقيقا يدلّ على اجتهاد كبير وعناية فائقة فنقل صورة واضحة وصادقة عن هذا البناء فقال :

« ثمّ عبرنا قبة أخرى إلى جانب هذه القبة فإذا هي أكبر وأضخم من التي قبلها بكثير (80) وبها من العجب ما ليس بغيرها - وذلك لما عبرنا من يابها

77 - يعني سيرة عنترة العبي . انظر عنها فصل : : (Antar (Sirat) 7 - 533 / 1 : E I 2 . (B. Heller) .

78 - يقصد النصّ الذي قرأته الفتاة وسمّاه العنترية .

79 - ص ص 174 - 175 .

80 - يقع هذا المسرح في القصر الذي نزل فيه الغزّال وهو قصر العائلة المالكة .

نحو عشر خطوات تلقّتنا درابيز من المرأة (81) والدّرابيز مطلة على مهواة (82) والقدر الذي بين الدرابيز وأرض المهواة قدر ما بينها وبين سقف القبة . وهذه الدّرابيز مستديرة بمباحات نافذة بعضها لبعض مقسّمة على إثنين وخمسين قسمة : كل قسمة بين ساريتين . والسّواري في نفسها مثنّة هي من المرأة صاعدات من متن الدّرابيز وقائمة السّواري . وبُسط (83) الدّرابيز الرّابطة للمرأة صفائح من الذهب .

وقد نزلنا المهواة من مدارج الرّخام . فإذا هي قبة في غاية الطّول والعرض . أرضها من اللّوح وفيما بين بعض اللّوح والذي يليه فرجة قدرها أربعة أصابع ، تنفذ المهواة في باطن الأرض عمقها قدر نصف علو القبة فأكثر (84) . وتقابل الفرجات التي بين الألواح والأرضية قلع مطوية على فرود من الخشب قرب السّقف (85) .

وبجنب القبة (86) صناديق الموسيقى (87) ونواعير وأكداش وغير ذلك من الأشياء التي لا نعبر ولا ندري ما تسمّى به . . .

81 - يعني بالدّرابيز البقاع المواجهة للرّكح في الطبقات وهو المعبر عنه بالفرنسية Premier balcon ou mezzanine أو second balcon ou paradis أو second amphithéâtre ؛

ونرجّح أن يكون الأخير للياقته بالملك ، والمرأة يعني بها البلور .

82 - المهواة هي « صحن الدار » كما ذكر في النصّ السّابق وهو يعني بها المكان الأرضي في المسرح حيث الأرائك والكراسي وفي الفرنسية كان يسمّى : parterre وصار يسمّى : fauteuils d'orchestre .

83 - وجدنا في مخطوطة : بسيط .

84 - أرض اللّوح والمهواة في باطن الأرض يعني بهذا الوصف الرّكح وما تحته .

85 - القلع المطوية . . . يقصد بها : السّائر : ونلاحظ أنّنا اعتمدنا في توضيح هذه المصطلحات على (Théâtre) : فصل 9 - 286 / X Grand Larousse .

86 - يقصد قبة الرّكح .

87 - يقصد المِعْزَف (Piano) .

فسألنا عن ذلك فإذا القبة معدة عند الطّاغية للفرجة . وما بها من الاشياء المذكورة هي آلة لأهل اللّعب بها . والمباحات المستديرة بنصف القبة هي محلّ جلوس الطّاغية مع زوجته وأولاده وخواصّه للفرجة . وهي المسماة عندهم بالكُميدية (88) .

هذه أهمّ مظاهر أبهة الطبقة الأرستقراطية كما شاهدها الغزّال ونقل عنها صورة واضحة وجلية . إلّا أنّ قارئ الرحلة لا يمكن ألاّ يفاجئه وصف حفل حضره السّفير المغربي أعدّه ابن حاكم اشبيلية - نيابة عن أبيه المتغيّب - ففيه تجاوزت مظاهر الأبّه الحدّ وكفى تخيلاً لذلك أنّ الابن « هيّا لهذه اللّيلة العدد الكبير من الشليات بما يزيد على الأربعة آلاف . . . وأوقد من الشمع ستّ آلاف وثمانائة شمعة » ! ؟ وأنّ النسوة تزيّن « من اليواقيت اليمنطية (89) وغيرها » بما تجاوز المعتاد ! وقد أدرك السّفير « أنّ القصد هو إظهار القوة والسّعة في المال وما هم عليه من البسط والنعمة » (90) .

آثار المسلمين :

أهمل الغزّال - كما التزم في مقدمة رحلته - الحديث عن الجوانب التاريخية لإسبانيا الإسلامية . ومقابل ذلك نقل صورة حيّة وواقعية عمّا اطلع عليه من آثار المسلمين فيها . وكم كان حريصا على معاينتها مباشرة ، كلّفه ذلك ما كلّفه من إحراج مستقبله ، أو تأخّر في موعد السّفر . وقد عبّر صراحة عن هذا الاهتمام في قوله : « وسافرنا قاصدين مدينة طليطلة (. . .) وقد كنّا في غاية الاهتمام بها ، وبقي في الخاطر منها شيء كثير حيث عرّجنا عليها حال

88 - انظر ص : 117 - 118 .

89 - تعريب اللفظة الإسبانية Diamant وهو الألماس : نوع من الحجارة الكريمة .

90 - انظر وصف هذا الحفل ص ص 89 - 90 .

العبور لمادريد ، ولم يساعدنا الوقت في الدّخول إليها (. . .) وكان القصد منّا في الوصول إلى طليطلة أن نتعاهد الأماكن التي كانت للمسلمين ، ونحیی معاهدهم ونقف على مقابرهم ونترحم عليهم ، ونعبر جامعها الأعظم ، ونبحث عمّا هناك من الكتب العربية (91) . وما نجده بالموضع الذي لا يناسبه نقله للموضع اللّائق به الحافظ له من لمس الكفرة فضلا عن أن يطوّوه » (92) .

بهذه الرّوح كان الغزّال يبحث بحثا ميدانيا عن بقايا المسلمين في أرض الأندلس الغابرة . ومهما كانت هذه البقايا حقيرة فإنّه لم يهمل تقييدها . فالقصة ، والسّور ، والقنطرة - حتّى وإن صارت أطلالا دراسة ورسوما طامسة - لا يتردّد في تسجيلها وذكر صفتها ونعتها (93) . ولكنّه حين يجد آثارا باقية على حالها أو على ما يشبه حالها يعمد وقتئذ إلى الوصف ويستقصيه ويتوسّع فيه . وهذا ما فعله أثناء الحديث عن المسجد الأعظم بإشبيلية فذكر مقوّمات بنائه مثل أبوابه السّبعة ، وسواريه المائة والعشرين . . . وأهمّ ما شدّ بصره التّغييرات التي أحدثها الإسبان فيه وهي :

- جعل زواياه مخازن للتّماثيل والدّخائر الثّمينة .
- اتّخاذ تربيعة في وسطه مصلى لهم وضعوا به صلبانهم وتساويرهم الكثيرة .

91 - كانت إحدى مشاغل الغزّال استرجاع بعض الكتب الموجودة في إسبانيا وخصوصا في مكتبة الإسكوريال التي احتوت - من جملة ما احتوت - على عدّة آلاف من المخطوطات تعود إلى مكتبة سلطان المغرب مولاي زيدان (1012 / 1603 - 1037 / 1627) . انظر قصّة وصولها إلى

. M. Casiri : Bibliotheca arabico hispana Escorialensis; 1969 T.I p.IV note b.

92 - ص ص 162 - 163 .

93 - انظر مثلا ص : 58 ، 67 ، 71 ، 72 ، 91 ، 92 ، 93 ، 104 ، 105 ، 109 ،

163 ، 176 ، 192 ، 194 ، 212 ، 213 .

- اتخذ بيوت - بصره - يسكنها الفريالية (94) .

- تعليقهم بالمثدنة 25 ناقوسا أكبرها وزن 185 قنطارا (95) ويبدو أن الغزال كان أكثر اهتماما بالمسجد الأعظم بقرطبة (96) لأن هذه المدينة كانت عاصمة الخلافة الأموية ، رمز قوة الإسلام في الأندلس . وهذا المسجد « ذكرى » على كل ذلك . فما قولك في معلّم سواريه الرّخامية 1228 سارية (97) وطوله 602 قدما وعرضه 45 قدما (98) وأبوابه 14 بابا (99) ومثدنة درجاتها 222 درجة ؟ ثمّ ألا يكفي دليلا على خروجه عن المعتاد أنّ السّفير المغربي قضى يومين في التّعرف عليه ، والاطّلاع على أكنافه والتفرّج على جماله الأخاذ ؟ إلّا أنّ عظمته - هذه - لم تحميه من عبث الأيدي والتغيير المفسد لحُسْنه فوق ما وقع لغيره من المساجد الجامعة ، ولم يسلم من الانتهاك إلّا محرابه فهو « باق على حاله لم يُحدّث فيه تغيير » لأنه محجّر « بشباك من النّحاس بحيث لا يدخله أحد » .

وقريب من هذا الأثر الإسلامي في الضّخامة والجمال جامع طليطلة إلّا أن مثدنته أذهب في السّماء بدرجاتها الثلاثمائة والتّسع والخمسين ! وقد استفاد الإسبان من هذا العلو فعلقوا فيها 12 ناقوسا أكبرها وزن 394 رطلا . كما أحدثوا في الجامع من التغييرات ما أحدثوا في غيره (100) .

94 - جمع عربي للفظه Fraile الإسبانية وهو رجل الدّين .

95 - انظر وصف هذا الجامع ص ص 84 - 85 .

96 - انظر وصفه ص ص 96 - 102 .

97 - وقيل إنّها كانت 1400 (نتيجة ص 100) . وللمقارنة نذكر أن المسجد الأقصى بالقدس أعظم مساجد المشرق العربي ليس فيه أكثر من 414 سارية - انظر رحلة ابن جبير - طبعة صادر ص 81 .

98 - القدم مقياس طوله 33 ستمترا .

99 - كان عددها 16 سُدّ منها إثنان .

100 - انظر وصفه ص ص 163 - 166 .

وإلى جانب المعالم الدّينية الإسلامية اهتم الغزّال بالقصور الباقية في الأندلس . وأشهرها قصر المعتمد بن عباد (101) بإشبيلية . وقد أطل في وصفه لأنّه أنزَلَ به ، وأشاد بكمال الجمال فيه واعتبره مثال الفنّ عند العرب المسلمين . وقد أدّى به هذا الإعجاب إلى عقد مقارنة طريفة بين فنّ العمارة عند المسلمين والعجم قال :

« ولنرجع للكلام عن كيفية الدّار المذكورة ، ووصف بعض ما اشتملت عليه من رائق الصّنع وبديع النّقش وفخامة البنيان على ما اقتضته حكمة المهندسين في ذلك ولم يكن مثلها بمدينة إشبيلية ولا في غيرها . وذلك أمر مسلم [به] عند العجم ، معترفون بالعجز عن ذلك لأنّ حكمتهم استقلّت بنحت الحجارة وضخامة البنيان وارتفاع الأبواب واستيعاب القباب والمقاعد والتّصاوير ، وتذهيب بعض السّقف وتزيين الحيّطان بالقماش المرقوم المسمر بالمسامير المذهّبة وتعدّد المرايا والمنارات البلّورية وما في معنى ذلك . وما عدا ذلك من عمل الجبّاص والتّزليج والتّجارة فلا طاقة لهم بذلك . ولا شكّ أنّ في عمل المسلمين حسن ونضارة وحلية تميل لها النفوس وفيها نزهة للنّاظرين » (102) .

وتبقى ملاحظة تهّم آثار المسلمين في إسبانيا وهي أنّ هذه الآثار لحقها ما لحق أصحابها أثناء حركة الاسترداد فوقّ تغير كل المعالم الدّينية والتصرّف فيها ولم يحافظوا عليها إلّا من خلال انتفاعهم بها . وهذا السلوك يدلّ على استمرار الرّوح الصليبية . ويدعّم ما ذهبنا إليه محافظتهم على القصور

101 - آخر أمراء الدولة العبّادية في الأندلس (حكم بين 461 / 1069 و 482 / 1090) ثمّ أسره يوسف ابن تاشفين وبقي في أغمت بالمغرب الأقصى الى وفاته سنة 487 / 1095 . انظر عنه فصل :

Al - Mu 'tamid : E I III / 832 - 4 (E. Lévi Provençal).

102 - ص 79 - وانظر وصف هذه الدار ص ص 79 - 84 .

- كقصر ابن عباد - محافظة تامة فهي « محجرة لم يسكنها أحد ولا يدخلها إلا إذا أتى طاغيتهم بنفسه ، او القيّم على نظافتها وتفقد أحوالها . . . وحيث كانت محجرة بقيت على جدتها إلى الآن » (103) .

الجانب السياسي والدبلوماسي :

يتوقع القارئ أن يجد في « نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد » حديثا عن المفاوضات التي تمت بين الوفد المغربي والحكومة الإسبانية ، ووصفا للحياة السياسية هناك . ولكنه يفاجأ بشح المعلومات عن هذين الموضوعين ذاك أن الغزال اكتفى بإيراد بنود الاتفاقية عن تنظيم حياة الأسارى المسلمين في اسبانيا وأهمل الموضوع الثاني . على أنه قدّم بعض المعلومات المفيدة عن الحياة الدبلوماسية . وأوّل ما شدّ انتباهه أسلوب الاستقبال عندهم وهو أسلوب مركّز على الأفعال التالية :

- نزع الشماير (104) مع عكس الرؤوس أمام الوفد (105) .

- رفع الصّوت والإعلان بنصر السّلطان المغربي (106) .

- ضرب النّوبة أي عزف الموسيقى (107) .

- رمي المدافع (108) .

103 - ص . 75 .

104 - مفردة شِمِير وهو تعريب اللفظة الأسبانية Sombrero أي القُبعة .

105 - ص 47 .

106 - صيغته : بِيَارَافِي مَرُوكْ أي Viva el Rey de Marruecos ، ومعناه : يحيي ملك المغرب انظر نتيجة ص 89 .

107 - ص 66 .

108 - ص . 47 .

وكان يصحب هذه الأفعال - بعضاً أو كُلاً - خروج أعيان كلّ بلدة يترقبون الوفد خارجها لاستقباله ودفع « مطلق الناس » عنه يبلغ محلّ إقامته .

أمّا الملك الإسباني فقد استقبل الوفد - بعد تأخر (109) - استقبالا رسميا حضره « أعيان الكرطي (110) » والباشدورات (111) من سائر الأجناس ، وما انضاف اليهم من خاصّة وعامة مصطفين من باب مدينة لاكرانخة (112) الى القصر الملكي (113) . كان الملك يترقبه واقفا « وعن يمينه أحد الفرايلية الملازمين له ، وأربعة من الوزراء عن شماله » . وقد دام الحفل ربع ساعة تقريبا (114) . ثمّ استقبله مرة ثانية حيث تقبل منه الهدية : الخيل والجمال (115) .

ولم يكن الغزّال - رئيس الوف المغربي - أقلّ مهارة دبلوماسية . فرغم أنّها أوّل سفارة يقوم بها إلى اسبانيا ذات التقاليد العريقة في هذا المضمار - فإنه كشف عن مهارة في حسن التصرف ، وذكاء في حسن التخلّص . وهذا في اعتقادنا دليل على ثقافته العربية الإسلامية ، واطلاعه على الآداب السلطانية . فعندما طال وقوف الملك الإسباني أثناء الاستقبال الأوّل لم يتردّد السّفير في القول للترجمان « استأذنه علينا في الانصراف ، فقدّ أشفقت عليه من طول

109 - السّبب في ذلك وفاة والده الملك الذي دخل دار الحجة على عادتهم وبقي الوفد يترقب أكثر من شهر - انظر نتيجة ، ص 114 ، 123 .

110 - كرطي تعريب اللفظة الاسبانية Cuartel وهي تعني قيادة الجيش .

111 - مفردة باشدور - وهو تعريب اللفظة الاسبانية Ambajador وتعني : السّفير .

112 - كان ملك اسبانيا يقيم في هذه المدينة .

113 - ص 127 .

114 - ص 128 .

115 - ص 139 .

وقوفه معنا ، وَلَيْسَاجُنَا فِي هَذَا التَّعَبِ النَّاشِءُ عَنْ سَبَبٍ مَبَاشِرَتِهِ إِيَّانَا الْمَوْجِبَةُ لَطَوِيلِ قِيَامِهِ ، لِأَنَّ نَفُوسَ الْوَلَاةِ لَيْسَ كَنَفُوسِ مُطْلَقِ النَّاسِ » فَكَانَ وَقَعَ هَذَا الْكَلَامَ حَسَنًا عَلَى نَفْسِ الْمَلِكِ . قَالَ الْغَزَّالُ :

« فَأَنْشُرُ مِنْ مَخَاطِبَتِنَا إِيَّاهُ بِذَلِكَ ، وَجَعَلَ يَضْحَكُ ، وَيَنْظُرُ لِلْأَعْيَانِ الْحَاضِرِينَ كَأَنَّهُ يَتَعَجَّبُ تَمَّ سَمْعَ وَرَأْيَ تَمَّ لَمْ يَخْطُرْ لَهُ عَلَى بَالٍ وَقَالَ : جَزَاكُمُ اللَّهُ خَيْرًا عَلَى هَذَا الْخُطَابِ الْحَسَنِ . فَقَدْ أَنْشَرَحْتُ صَدُورَنَا ، وَأُنِسْتُ أَرْوَاحَنَا بِحَدِيثِكُمُ الْمُسْتَطَابِ النَّاشِءِ عَنِ الْعَقْلِ الرَّاجِحِ وَالصَّوَابِ » (116) .

وحتى أثناء حفلات الاستقبال التي كان يعدها أعيان أسبانيا تصرّف الغزّال تصرّفًا يدلّ على حسن دبلوماسي حقيقة . فقد كان يملك القدرة على نبيل رضا مخاطبيه بطلاوة لسانه ، وفصاحة كلامه . سئل ذات مرّة عن أجمل امرأة في المحفل فقال : « إِنَّ هَذَا الْمَجْلِسَ هُوَ بَسْتَانُ وَالنِّسْوَةُ اللَّاتِي (117) فِيهِ أَصْنَافُ النُّوَارِ » (117 م) . وكان يدرك أنّه في مجتمع يختلف عن مجتمعه ، سلوكًا وعادات وأخلاقيات وحضارة فوجب عليه المداورة واستحسان أفعالهم - حتى وإن لم تعجبه - « جبرًا للخواطر » .

الخلفية الفكرية :

إنّ « نتيجة الإجتهد » تحمل أبعادًا دينية تُخفي مدى حدّة الصّراع بين الإسلام والنّصرانية . وقد اعتبر الغزّال سفارته سفارة « جهاد » وهذا يعني تجسيم إرادة سيّده سلطان المغرب الذي ما كان ليصل إلى « المهادنة » مع ملك أسبانيا لولا قوة أسطوله ونشاط قراصينه . فمن هذا المنطلق - منطلق قوّة

116 - ص ص 128 ، 129 .

117 - في المطبوع وجميع المخطوطات : التي .

117 م - نتيجة ص 56 .

المغرب وقوة الإسلام - كان السّفير المغربي ينظر إلى تصرّفات الإسبان ويقومها . والمواقف كثيرة ونكتفي بإيراد إثنين :

الأوّل : رأيه المتكرّر في قوتهم . فقد كان من خفايا السّياسة بثّ الرّوع في نفوس العدو . ولهذا عمد الإسبان إلى الإكثار من رمي المدافع وإظهار القوة العسكرية أمام الوفد المغربي . ولم يفث الغزّال هذا السرّ فقال « . . . » ومراد طاغيتهم فرجتنا بذلك ، والتّويه بقدرنا . ثمّ اطلعنا على ما هم عليه من الاعتناء بما يتعلّق بالحرب وإظهار القوة » (118) . وشعورا منه بمسؤولية حماية ناموس بلاده وقداسته دينه لم يألُ جهدًا في الدّفاع عنهما بأسلوبه . فكان - كلّما أطلعوه على مدافعهم ومهارسهم وميادين رمايتهم - يقول لمصاحبيه ومستقبله « إنّ حرب الإسلام لا يلتفتون [فيها] للمدافع والبُنْب (119) حال القتال . وإنّما الشّأن عندهم السّيف والرمح والنّبل . واستعمال البارود إنّما هو عند الصّدمة الأولى فقط . فإذا اختلط القوم بالقوم فما عندنا إلّا السّيف وما أضيف إليه من رمح ونبل وجمال الخيل بين الصّفوف هازمة للجيش . وما كان من المدفع والمهراس إنّما هما آلتان من أهل البحر أو المدن الّتي حاصرها العدو ، وتدفع بذلك عن نفسها لعجزها عن مقاومة من حاصرها » (120) .

الثّاني : أنّه كان محافظًا على عقيدته مظهرًا وسلوكًا وقولًا وفعلًا في جميع الأحوال . فقبل لقائه بالملك الإسباني - مثلاً - فكّر فيما يخاطبه به « بما يسوغ شرعا » و « ما لا محذور فيه » (121) وعندما وجد أجرّة - بإحدى اعتبار

118 - ص 146 .

119 - جمع مُفْرده : بُنْبَة ، تعريب اللفظة الإسبانية : Bomba . وهي قذيفة المدفع .

120 - ص 146 وأيضاً ص 112 ، 224 ، 226 ، 227 - 228 .

121 - ص 127 .

جامع غرناطة - مكتوباً فيها « لا غالب إلا الله » (122) لم يبرح المكان إلا بعد « أن أُقْلِعَتْ ، وأُلْقِيَتْ بأعلى موضع بسقف المقعد الذي وُجد فيه » (123) .

إنّ المواقف التي اتخذها الغزّال أمام الإسبان تنبع من التنافس القوي بين الدولة التي يمثّلها والدولة الإسبانية ، وترجم عن الصراع العنيف بين الدينين : الإسلام والمسيحية . فقد أدرك هذا السّفير أنّهم كانوا يسعون إلى إخماله وإشعاره بالذلّ أمام ما كانوا عليه من تقدّم في مختلف المجالات . فعمد إلى الاعتداد بنفسه وبدولته ودينه ، والظهور بمظهر القوة . وقد وجدناه في كلّ الرّحلة لا يفرّ عن نقدهم والرّدّ عليهم . ونكتفي بحادثة وقعت له في مصنع الفخّار بمدرّيد ذاك أنّه أعجب بتزيق الأواني إعجاباً شديداً فأراد أن يعرف سرّ « الصّناعة » وكيفية « عمل الذهب في الأواني » . قال موضحاً « أوهمتهم بجعجعة ألقّت في نفوسهم بأنّي صاحب حكمة وأنّ سؤالي لهم تنكيت فإن أجابوا حصلّت على المراد ، وإنّ امتنعوا فما تسبّبوا إلا في عدم حصولهم على ما عندي من الحكمة التي هي أغرب وأعجب ممّا عندهم . ومررت عنهم مرور زاهد فيما بأيديهم ضنيناً بما عندي . فجاؤوا معتذرين عن كشف حقيقة ذلك حيث حجّر عليهم طاغيتهم الإعلام بذلك . فقلت لهم :

« نحن المسلمون لا يحجّر علينا سلطان إظهار الحكمة ، بل إذا اتّصل بكريم علمه اتّنا كتمنا الحكمة ، وضنّنا بتعليمها المطالب يعاتبنا عليها . إذ ليست الحكمة عندنا تستقلّ ينوع واحد . وإنّما هي حِكْمٌ عديدة . إذا لقّنا البعض منها بقي الكلّ » ثمّ حدّثهم عن إحدى الطرق المستعملة عند المغاربة في تزويق

122 - هذه ليست آية ولكن معنى آية .

123 - ص 206 وأيضاً ص 101 .

الأواني ، وأنهى قائلاً « فبالغوا في المكافأة عليها والمجازاة باللسان ونكسوا رؤوسهم أمامنا بعد نزع الشمارير ، واعترفوا بفضل الإسلام وأهله ، وصار يحدث بعضهم بعضاً بما سمعه ورآه في ذلك » (124) .

الخاتمة :

لقد حاولنا في هذه الدراسة إبراز محاور اهتمام الغَزَال في البلاد الإسبانية إلا أننا نعتقد أنها ليست وافية بل هي مجرد جلب اهتمام الباحثين إلى هذه الرحلة السَّفارية لما تزخر به من فوائد متنوعة تهّم مظاهر الحياة في إسبانيا وموقف الغَزَال منها كما هي دعوة للإقبال على دراسة هذا النوع من الرحلة الذي أُلِفَ فيه المغاربة عدّة رحلات . ولعلنا بذلك نستطيع التعرّف على موقفهم من حضارة أوروبا في القرن الثامن عشر ويتسنى لنا فهم التحوّل الذي حدث في البلاد العربية مغرباً ومشرقاً بصفة واضحة .

أحمد الشتيوي